مدرسة الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي بحصن جبرين بسلطنة عمان (القرن ١٧ الميلادي)

د. محسن بن ناصر السالمي، أستاذ مشارك، قسم: المناهج والتدريس، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.
د. سعيد بن راشد الصوافي، أستاذ مشارك، قسم العلوم الإسلامية، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان.
د. مسلم بن سالم الوهيبي، أستاذ مشارك، قسم المتطلبات العامة، كلية العلوم التطبيقية بنزوي، جامعة التقنية والعلوم التطبيقية، سلطنة عمان.
أ. خلفان بن سالم البوسعيدي، مشرف مادة التربية الإسلامية، قسم التربية الإسلامية، وزارة التربية والتعليم، سلطنة عمان.

الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى التعريف بشخصية الإمام بلعرب بن سلطان، وإسهاماته العلمية، والتعريف بمدرسته، وأثرها في الساحة العلمية والأدبية، والوقوف على جوانب من معالم هذه المدرسة، وآليات التدريس فيها، وأهم إنجازاتها. وتضمنت الدراسة: مقدمة، وتسعة مطالب، وخاتمة. وخرجت بنتائج أهمها: أن سبب نشاط ازدهار الحركة العلمية في عمان في فترة الدولة اليعربية اعتمد على ثلاثة عوامل رئيسة؛ اهتمام الأئمة اليعاربة بالناحية العلمية، والرخاء الاقتصادي، واستتباب الأمن. واستطاعت مدرسة الإمام بلعرب بن سلطان أن تسطر إنجازاتها لتكون منارة عبر الزمن، ومدرسة حضارية يستفاد منها في بناء مؤسسات التعليم وتشغيلها وإدارتها، وأنموذجاً في تنظيمها وجودة مخرجاتها، التي أسهمت إسهاماً كبيراً في الحركة العلمية والثقافية والأدبية في عمان.

كلمات مفتاحية: الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي، حصن جبرين، مدرسة جبرين.

Summary

The School of Imam Bel Arab bin Sultan Al-Yarubi in Husn Jabrin in the Second Half of the 17th Century AD

This study aimed at introducing the personality of Imam Bel Arab bin Sultan, his scientific contributions, introducing his school, and its impact on the scientific and literary arena, and identifying aspects of the features of this school, its teaching mechanisms, and its most important achievements. The study included: an introduction, nine demands, and a conclusion. And it came out with the most important results: The reason for the flourishing of the scientific movement in Oman during the period of the Ya'ariba State depended on three main factors; The interest of the Ya'ariba

imams in the scientific aspect, economic prosperity, and security. The Imam Bel Arab Bin Sultan School was able to highlight its achievements to be a beacon over time, a civilized school that can be used in building, operating and managing educational institutions, and a model in their organization and the quality of their outputs, which have greatly contributed to the scientific, cultural and literary movement in Oman.
Key words: Imam Balarab bin Sultan Al-Ya'rabi, Jabreen Fort, Jabreen School.

المقدمة:

سلطنة عمان دولة لها حضارة عريقة، وتأريخ مجيد عبر العصور المتعاقبة، ولا شك أن هذه الحضارة قامت على أسس متينة، وأركان راسخة، ويأتي في مقدمتها العلم، فبه تقوم الأمم، وتنهض الشعوب، وتتطور حياة الناس، وبالعلم النافع تتحقق سعادتهم في الدنيا والآخرة. ولقد منَّ الله تعالى على أهل عمان بدخول الإسلام في القرن السادس الميلادي، عندما أسلم الصحابي الجليل مازن بن غضوبة السعدي السمائلي، بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وحسن إسلامه، وأكرمه الله تعالى بدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعمان وأهلها بالخير، حين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ادعو الله تعالى لأهل عمان، فقال: (اللهم اهدهم وأثبهم. فقلت زدني يا رسول الله، فقال: اللهم ارزقهم العفاف والكفاف والرضا بما قدرت لهم. قلت يا رسول الله، البحر ينضح بجانبنا ادع الله في ميرتنا وخفنا وظلفنا، فقال: اللهم وسِّع لهم وعليهم في ميرتهم، وأكثر خيرهم من بحرهم. قلت زدني، فقال: اللهم لا تسلط عليهم عدواً من غيرهم، قل يا مازن آمين، فإن آمين يستجاب عنده الدعاء)[1].

دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ملكي عمان عبد وجيفر بني الجلندى[2] إلى الإسلام، فاستجابا لدعوته، ودخل أهل عمان الإسلام طوعاً، فزاد اهتمامهم بالعلم تعليماً وتعلماً وتأليفاً، وحملوا شرف مسؤولية الدعوة والتربية والتعليم؛ لأنهم أيقنوا أن أعظم إرث يبقى لهم في هذه الدنيا هو علم ينتفع به، يقول صلى الله عليه وسلم: (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[3]، لذلك حرصوا على أداء هذه المهمة، والقيام بهذه المسؤولية خير قيام، فبذلوا لأجل ذلك أموالهم وأبدانهم وأوقاتهم، واستخدموا أساليب متعددة، ووسائل متنوعة، مستوحين ذلك من أساليب القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ووضعوا لذلك قواعد وأطراً تجعل عملية التربية والتعليم عملية منظمة هادفة.

ومن العصور التي ازدهرت فيها عمان علمياً وحضارياً عصر اليعاربة، الذين حكموا عمان فترة امتدت من 1624م إلى 1749م، استطاعوا خلالها توحيد عمان، وتخليصها من الغزاة والمحتلين البرتغاليين[4]، فاستقرت الأوضاع فيها، وازدهرت التجارة والزراعة، واهتم حكامها وعلماؤها بالتعليم، وتعددت الأماكن التي تتم فيها عملية التعليم، ومن ذلك؛ المساجد والجوامع، والقلاع والحصون، والكتاتيب، والمكتبات العامة والخاصة.

ومن المدارس التي اشتهرت في عصر اليعاربة مدرسة الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي الذي حكم عمان في الفترة من 1679-1692م، وكان عالماً بالفقه والتفسير، فقام بالحق، وسار بالعدل، ولم تزل الرعية له شاكرة، ولفضله ذاكرة، وكان جواداً كريماً، وحين تولى زمام الأمور في البلاد واصل مسيرة والده في ملاحقة البرتغاليين في الساحل الشرقي لإفريقيا، وفي السواحل الغربية للهند، وبنى حصن جبرين، وزوده بمخزن لمواجهة الحالات الطارئة، كذلك اهتم بإنشاء المدارس في ربوع عمان، وفي مقدمتها المدرسة التي أنشأها في مقر إقامته بحصن جبرين.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى الآتي:

- التعريف بشخصية الإمام بالعرب بن سلطان.
- التعريف بمدرس الإمام بالعرب.
- الوقوف على جوانب من معالم المدرسة وآليات العمل فيها.
- الكشف عن أثر المدرسة في الساحة العلمية والأدبية.
- إبراز أهم إنجازات هذه المدرسة.

محتوى الدراسة:

- المقدمة
- المطلب الأول: الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي.
- المطلب الثاني: حصن جبرين.
- المطلب الثالث: مدرسة جبرين.
- المطلب الرابع: نظام التعليم في مدرسة جبرين.
- المطلب الخامس: الاهتمام بالمعلمين والمتعلمين في مدرسة جبرين.
- المطلب السادس: المواد التي تدرس في المدرسة.
- المطلب السابع: الأسس التي قامت عليها مدرسة جبرين.
- المطلب الثامن: قوانين الدراسة في المدرسة.
- المطلب التاسع: الثمار العلمية لمدرسة جبرين.

المنهجية: تعتمد هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في تتبع سمات مظاهر مدرسة الإمام بلعرب بن سلطان من خلال ما كُتب عن هذه الشخصية، وكذلك تعتمد على المنهج الوصفي في التعريف بهذه المدرسة، ودورها الحضاري، وأثرها في المجتمع.

المطلب الأول: الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي

هو الإمام بالعرب بن سلطان بن سيف بن سلطان بن مالك بن بالعرب بن سلطان بن حمير بن مزاحم بن يعرب بن محمد بن يعرب بن مالك بن يعرب بن مالك العربي اليمني الحميري الأزدي[5]. نشأ في كنف والده الإمام سلطان بن سيف، مهذباً طموحاً، فقد رباه والده على الأخلاق الحميدة، والشجاعة والإقدام، والقيادة، والعلم والأدب، فصار رجلاً قوياً فطناً، مما جعل والده يشاوره في كثير من الأمور السياسية المهمة والحوادث الجليلة، فيجد عنده الرأي السديد، والجواب الرشيد[6]. عيَّنه والده الإمام سلطان بن سيف والياً على مسقط سنة 1649م بعد أن أخرج البرتغاليين منها، ثم والياً على الرستاق عام 1675م. وبويع بالإمامة عام 1679م بعد وفاة والده، وأكمل مهمة والده في ملاحقة البرتغاليين في شرق إفريقيا حتى وصلت حملته إلى

موزمبيق، وأرسل حملة أخرى في عام 1674م لمواجهتهم في ديو على الساحل الغربي من الهند. ومن أهم أعماله تنشيط حركة التجارة في البلاد؛ فنشط الأسواق القائمة؛ كسوق مسقط، وعمد إلى بناء الأسوق؛ كسوق منح، وبنى حصن جبرين، ونشر التعليم في ربوع البلاد من خلال بناء المدارس[7].

اشتهر الإمام بالعرب بالعلم، فكان عالماً في الفقه والتفسير، وورد ذكره في بعض الكتب الفقهية بالشيخ العالم، وقد ذاع صيته في ربوع عمان؛ لما اتصف به من صفات جليلة، وهذا ليس بمستغرب، فقد تربى على يد والده الإمام الورع الزاهد التقي الإمام سلطان بن سيف الأول على الأخلاق الحسنة والمعاني النبيلة، وقد وصفه المؤرخون بأنه كان تقياً ورعاً، وعادلاً، وكريماً، وكان يقال له أبو العرب؛ لكرمه الزائد، وأظهر العدل والإنصاف، ووطئ أثر السلف الصالحين، فشكرته الرعية وأثنت عليه[8].

وكان للإمام بالعرب الفضل في إيجاد مؤسسات رسمية للتعليم، تقدم فيها جميع الخدمات للمتعلمين، كالسكن والمأكل والمشرب وأدوات التعليم والتعلم، وغيرها من الاحتياجات التي يتطلبها طالب العلم.[9]

وبقي الإمام بالعرب يضرب به المثل في العدل والجود، يقول عنه ابن رزيق: «شاع نور عدله في البلاد، وما جفَّ جوده المنهلّ عن العباد»[10]. حتى وقع بينه وبين أخيه سيف خلاف، ووقعت بينهما حرب، فحاصر سيف أخاه بالعرب في حصن جبرين، وحين علم بكف أتباعهما عن القتال، واتفقوا على أنه إذا اقتتل الأخوان فإنهم سيكونون تبعاً صاروا رعية للباقي منهما وتبعاً، فإن أبيا المبارزة مكث كل واحد من القوم في معسكره، فإذا طالت المدة رجعوا إلى بلدانهم، فلما بلغ الإمام بالعرب خبر القوم، توضأ وصلى ركعتين، وسأل الله تعالى أن يميته درءاً للفتنة، فما فرغ من دعائه إلا وقد خر على البساط الذي صلى فيه ميتاً، فلما علم أخوه سيف بالخبر، ذهب إلى الحصن، وغسَّل أخاه، وصلى عليه، ودفنه، وقبره موجود داخل الحصن[11]. ويُذكر أن سبب خروج أخيه سيف عليه يعود إلى رغبة الإمام بالعرب في إيجاد جو من الهدوء والاستقرار في البلاد، ونشر العلم في ربوعها، فسعى إلى عقد اتفاقية سلام مع البرتغاليين، ولما كان سيف محباً للظهور والسيطرة والتوسع؛ رأى أن تلك الاتفاقية كانت خطأً، فما كان منه إلا أن خرج عليه[12].

المطلب الثاني: حصن جبرين[13]

بُني هذا الحصن ببلدة جبرين التابعة لولاية بهلاء في محافظة الداخلية، وهو يبعد عن العاصمة مسقط حوالي 165 كيلومتراً، ويسمى بقصر جبرين، أو قصر اليعربي، ويعود تاريخ بنائه إلى ما قبل عام 1675م، وقد أشرف الإمام بلعرب بن سلطان اليعربي - رحمه الله - على بنائه وتصميمه، ويعد حصن جبرين واحداً من أجمل وأروع الحصون العمانية، حيث وصفه كل من رآه بأنه تحفةٌ فنيةٌ نادرةٌ، جمعت ما بين الفن الزخرفي والعمارة العمانية التراثية، وهو عبارةٌ عن بناءٍ مستطيل الشكل يصل طوله إلى 42 متراً ويصل عرضه إلى 22 متراً، بينما يصل أقصى ارتفاعٍ له إلى 22 متراً، ويضمّ برجي مدفعيّةٍ دائريّين متقابلين أحدهما في الجهة الشمالية والآخر في الجهة الجنوبية، وهما مخصّصان لحماية القصر من جهاته الأربعة، ويحيط به سورٌ يضم البوابة الرئيسة للحصن في الجهة الشمالية الشرقية، والحصن الرئيس مؤلفٌ من خمسة أدوارٍ، قُسِّمت إلى قسمين: أحدهما يتألف من طابقين، وارتفاعه 16 متراً، والآخر يتألف من ثلاث طوابق وارتفاعه 22 متراً،

ويحتوي الحصن على حوالي 55 غرفة[14].

ومما ذكره الإمام السالمي[15] في وصف هذا الحصن قوله: «وكان من عجائب الزمان، وقد بناه (الإمام بالعرب) من صلب ماله، على ما قيل؛ لأن الأموال قد كثرت، في أيامه وأيام والده قبل، حتى كادت أن تفيض البيضاء والصفراء من أيدي الناس؛ وذلك لبركة العدل، وفضل الجهاد...، حتى قيل إن حصن جبرين لا يستطيع أحد أن يصفه، بجميع ما فيه، ولو فكر فيه شهراً كاملاً بإمعان النظر التام، وهو قصر عال، يجري في بطنه نهر جار، وله حيطان شاهقة، ومن عجائبه، أنه لو دخله داخل من غير أهله لم يقدر أن يبلغ أعلاه إلا بدليل من أهله»[16].

حصن جبرين

المطلب الثالث: مدرسة جبرين

تعد مدرسة جبرين أعظم صرح علمي بناه الإمام بالعرب بن سلطان، وذلك بنصيحة قدمها إليه عمر بن سعيد الجربي أحد علماء تونس، وذلك حين زار عمان أيام حكمه، فرأى مجالس العلم فيها قليلة، فكتب إلى الإمام نصيحة يحثه فيها أن يوجه الرعية إلى طلب العلم، وتقويم المجالس، وعمارة المدارس، ومن ضمن ما جاء فيها: «وإذا نظرت وتأملت في هذا الأمر العجيب الشأن، واطمأنت إليه نفسك، وهممت في تجديد معاهده وتشييد قواعده حباً لله ورجاءً لثوابه، فثوابه أجل وأعظم للمسبب والمتسبب فيه من ثواب المجاهدين، والمرابطين، والمصلين، والصائمين، والحاجين، والمعتمرين، ما خلا الفرائض من ذلك كله، وكان كل ذلك فضلاً ونفلاً»[17].

يقول الإمام نور الدين السالمي: «فأثرت النصيحة الأثر الجميل، وتلقاها الإمام بالقبول والتبجيل، فقام وشمر، وحث الرعية على طلب العلم، وأمر بالتعليم في ممالكه، وجمع جملة من المتعلمين في الحصن الذي جدد بناءه وهو جبرين»[18].

إن اختيار الإمام لموقع المدرسة في هذا الحصن لم يأت من فراغ، فهذا الموقع يوفر بيئة مناسبة لعملية التعليم وللطلبة، حيث الهدوء والراحة، وانفتاح المكان على جميع الجهات يعطي

مجالاً للطلبة النظر والتأمل والتدبر، كما أن حصن جبرين نفسه - بما فيه المدرسة - يعتبر تحفة معمارية رائعة، بما فيه من زخرفة ونقوش، وكتابة على جدرانه؛ تضمنت آيات قرآنية، وأبيات شعرية، وخواطر مأثورة، والحِكم، وبعض الكتابات التاريخية، وفي ذلك دلالة على الذوق الرفيع والحس المرهف لبانيه والقائم عليه. كذلك فإن هذه البيئة تشجع طلبة العلم على التدبر في تلك النصوص، وإمعان النظر فيها، واستخلاص الحِكم والفوائد منها[19].

واختار الإمام للمدرسة غرفة عالية من القصر، وهي فاخرة جميلة، ذات رونق بديع لها اتصال بالفلج الذي في بطن القصر، ولا يرى من فيها - في حال دخوله وخروجه - أحداً من عوائل القصر وخدمه، للهندسة التي يسرها الله لهذا الإمام الجليل في هذا القصر العظيم، وكان الإمام معهم ليلاً ونهاراً، وكان له اعتناء عظيم بهم، فأتوا إليه من شتى النواحي كما قال القائل: فكانوا يقبلون على حماه كأسراب الظباء رأت معيناً[20].

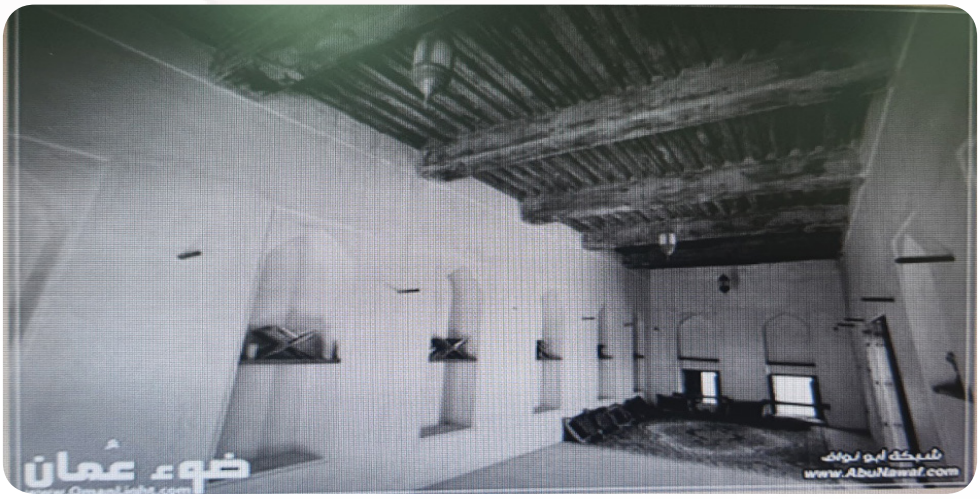

صورة لغرفة التدريس في قصر جبرين وكانت شعاع لتعليم القرآن والعلوم

المطلب الرابع: نظام التعليم في مدرسة جبرين

كان نظام التعليم في هذه المدرسة دقيقاً، وتمثل ذلك في اختيار المعلمين، وفي طريقة التدريس، وتقسيم الطلبة في حلقات العلم حسب مستوياتهم وقدراتهم، وكذلك من حيث السكن والمعيشة. ففي اختيار المعلمين وضعت شروط محددة، أهمها الآتي[21]:

- أن يكون صاحب رأي ومعرفة علمية، ويعرف ذلك من خلال شهرته، أو محاوراته ومناقشاته، أو كتبه ومؤلفاته.
- أن تكون لديه الرغبة في التعليم، فلا يصح أن يزاول هذه المهنة من لم يكن لديه الدافع إليها، والرغبة في امتهانها، ويمكن أن يُعرف ذلك من خلال ممارسات الشخص وجهوده في نشر العلم والمعرفة.
- أن يكون من أهل الخبرة والصلاح، فعملية التدريس تتطلب مهارات وكفايات معينة، يكتسبها الشخص من خلال التجربة وطول الخبرة، كما أنها تتطلب من المعلم أن يكون

قدوة لطلابه، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان عمله موافقا لأقواله.

- أن يكون من أهل الدين والورع، فهو أنموذج لطلابه، وقدوة للناس، فلا بد أن تتوافر فيه الصفات الحميدة، والقيم النبيلة.

المطلب الخامس: الاهتمام بالمعلمين والمتعلمين في مدرسة جبرين

لقد بلغ اهتمام الإمام بالمعلمين والمتعلمين غايته، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى إدراك الإمام ووعيه للجوانب التربوية والنفسية التي ينبغي أن تتوافر في البيئة التعليمية؛ حتى يشعر المتعلم بالاطمئنان والراحة والأمان، فلا يشغل ذهنه بشيء آخر سوى التحصيل، ولا تنشغل نفسه بشيء سوى التعليم، وبذلك تقل المشتتات التي تؤثر على التركيز وإعمال العقل، والنظر في المسائل التي تعرض عليه نظرة الناقد المتأمل المتفحص، ويتجلى هذا الاهتمام في الجوانب الآتية:

- توفير المسكن: وهو من الأمور الأساسية للمعلمين ولطلبة العلم، خصوصاً الذين يقدمون من أماكن بعيدة، وليست لديهم إمكانات مادية تعينهم على استئجار مسكن بأنفسهم، وحتى لو كانت لدى أحدهم قدرة مالية، فإنه قد يصعب عليه إيجاد مسكن قريب من المدرسة، فالمكان مازال حديث عهد بالبناء والعمران.
- توفير الطعام والشراب: ومن غاية اهتمام الامام بالمتعلمين كان بنفسه يختار لهم من الطعام أطيبه، إدراكاً منه بأن العقل السليم في الجسم السليم، فكان يوفر لهم الطعام الصحي الذي يقوي أجسامهم، ويساعد على تنمية ملكاتهم.
- صرف رواتب للمعلمين، ومعونة مالية للطلبة: فبالرغم من توفير المسكن والمأكل والمشرب، إلا أن الإمام لديه بعد نظر، فالطلبة لديهم حاجات ومطالب أخرى غير المأكل والمشرب، وهم لا يستطيعون توفيرها بما أنهم منقطعون في الدراسة، لذلك حرص الإمام على صرف مكافأة مالية لهم، كذلك صرف رواتب للمعلمين؛ تقديراً لجهودهم، وتكريماً لمكانتهم العلمية، وتحفيزاً لهم على بذل الجهد واستفراغ الوسع من أجل أداء رسالتهم، وفي ذلك أيضا عوناً لهم على إعالة أهلهم.
- تهيئة نفسيات المتعلمين وأذهانهم: يقال إن الإمام كان يهيئ الطلبة نفسياً وذهنياً من خلال تقديم الطيب لهم في أول الصباح، وفي ذلك إشارة إلى أن الإمام لديه معرفة بالجوانب النفسية، فهو يرى بأن شم روائح طيبة في أول الصباح يريح نفسية المتعلم، فيشعر بالهدوء، وهذا يساعده على حضور ذهنه، وإعمال عقله، والتركيز في التعليم والتحصيل.

إن هذا الاهتمام المباشر من قبل الإمام بالعلم والعلماء وطلبة العلم؛ جعل هذه المدرسة تستقطب العلماء الراسخين في العلم، المشهورين بالصلاح والتقوى، فذاع صيتها في الآفاق، وصارت منارة للعلم والمعرفة، ومركزاً علمياً وثقافياً ينشر العلم والمعرفة في ربوع عمان، فأقبل إليها طلبة العلم من داخل عمان وخارجها، وخصوصاً من بلاد المغرب العربي، الذين كانت تربطهم بعمان صلاة حضارية وعلمية.

المطلب السادس: المواد التي تدرس في المدرسة

لم تقتصر الدراسة في مدرسة حصن جبرين على المواد الشرعية وعلوم العربية، وإنما شملت المواد العلمية التطبيقية؛ كعلم الفلك، والطب، والكيمياء والرياضيات، فكانت هناك حلقة الفقه،

وحلقة العقيدة، وحلقة النحو والبلاغة، وحلقة التاريخ، وحلقة الطب، ويتدرج الطالب في الحلقة الواحدة، فيبدأ بالمختصرات، ومن ذلك «مختصر البسيوي»[22]، ثم الكتب المتوسطة وتسمى الجوامع «كجامع ابن بركة»[23]، ثم الكتب المطولة كمنهج الطالبين[24]، وذلك تلبية لحاجة المجتمع حينها من العلوم التي كان يهتم بها، ومن ذلك علوم الطب، وخصوصاً التداوي بالأعشاب، الذي ألفت فيه كتب، عن كل نبتة وما يمكنها أن تعالج من أمراض، ومن تلك الكتب: كتاب الأزرق، الذي ألفه محمد بن ناصر بن سليمان، وفاكهة بن السبيل، للطبيب العماني المشهور راشد بن عميرة الرستاقي، وغيرهما[25].

المطلب السابع: الأسس التي قامت عليها مدرسة جبرين

قامت هذه المدرسة على مجموعة من الأسس التي جعلتها تتبوأ مكانة عالية، وتنال شهرة واسعة داخل عمان وخارجها، ومن الأسس التي يمكن استخلاصها الآتي:

- وضوح الهدف: فطلب العلم وتحصيله ركيزة أساسية من ركائز الدين الإسلامي، حث عليه الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم، ويتجلى ذلك في أول آيات نزلت على الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]. ورغَّب في السعي إليه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في كثير من الأحاديث الشريفة، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)(26). فبالعلم يُعبَد الله تعالى على بصيرة، وبه تعمر الأرض، كما أدرك الإمام بالعرب أن بناء الدول وتقدمها، وإقامة العدل فيها، يقومان على ركيزتين أساسيتين: هما العلم والمال. فحين تكون الدولة مزدهرة اقتصادياً، فلا بد أن يواكب ذلك ازدهار علمي.
- حسن الإدارة: تولى الإمام بالعرب بنفسه زمام إدارة المدرسة، وأشرف على كل التفاصيل المتعلقة بالعملية التعليمية؛ ليتمكن من الوقوف على جوانب القوة فيدعهما، وجوانب الضعف فيعالجها، وبذلك يضمن تحقيق الأهداف المرجوة، والغايات المبتغاة.
- مجانية التعليم: إن الظروف الاقتصادية للدولة مكنت الإمام من تحمل تكلفة التعليم، وهذا يعتبر من العوامل المهمة التي تشجع الطلبة على التعلم، والسعي في طلب العلم، وبذل الجهد في تحصيله، خصوصاً أولئك الذين لا تسمح لهم ظروفهم المادية بالتفرغ لطلب العلم.
- الحرص على الجودة: وتمثل ذلك في حسن اختيار المعلمين الذين أوكلت إليهم مهمة التعليم، ومما ساعد على اختيار الأكفاء منهم وجود الحوافز المادية، فالمدرسة تقدم لهم راتباً، وتوفر لهم المسكن والمأكل والمشرب، وتقدم حوافز للمجيدين منهم، فكان ذلك - إلى جانب إخلاصهم وحبهم في نشر العلم - دافعاً لهم للبذل والعطاء.

- توفير بيئة تعليمية مناسبة: يعتبر هذا الأساس مهماً في العملية التعليمية، فمهما كانت الأهداف واضحة، والمواد الدراسية معدة بطريقة صحيحة، والطاقم التعليمي ذو كفاءة، لا يمكن أن تؤتي العملية التعليمية أكلها ما لم تتوافر بيئة تعليمية صالحة ومناسبة، وقد توافر هذا الأساس في مدرسة جبرين، من حيث موقعها، وتوفير الاحتياجات التي تتطلبها.
- مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين: ويتجلى ذلك في التدرج في عملية التعليم، فالطالب يبدأ في الدراسة من الكتب السهلة التي تسمى بالمختصرات، ثم المتوسطة التي يطلق عليها الجوامع، ثم ينتقل إلى المطولات، وكل طالب يقطع هذه المستويات وفق طاقاته وقدراته.
- التنوع في طريقة التدريس: فالتنوع في طريقة التدريس من العوامل الرئيسة لإنجاح عملية التعليم، لذلك نجد أن طريقة التدريس قد تنوعت بين التلقين، والحوار، والمناظرات، وكذلك التعلم الذاتي، الذي هو أساس لاستمرار التعلم، فالمعلم يوجه الطالب إلى مصادر المعرفة التي تساعده على الإجابة عن الأسئلة الموجه، وتقديم الحجج والبراهين في بعض القضايا والمسائل العلمية المقدمة.

المطلب الثامن: قوانين الدراسة في المدرسة

لا شك أن مدرسة بهذا المستوى من الإدارة والتنظيم تقوم على مجموعة من القوانين التي تجعل العملية التعليمية تسير في مسارها الصحيح، وتحفظ للمؤسسات مكانتها وسمعتها، ومن تلك القوانين[27]:

- قبول الطلبة في المدرسة: إن قبول الطلبة يخضع إلى اعتبارات عدة، ومن ذلك، تقييم المعلم للطالب، ومدى قدرته واستعداده للتعلم، وقبوله بقوانين المدرسة والالتزام بها.
- الالتزام بنظام الدراسة ووقتها: فقد كانت الدراسة تمتد من الصباح حتى المساء، وتتخللها أوقات الصلاة، وتناول وجبة الغداء، وتستمر طوال أيام الأسبوع باستثناء يوم الجمعة، فهو يوم إجازة للمعلمين والطلبة.
- تطبيق الثواب والعقاب: فالطالب المتميز يثاب بالمدح والثناء أمام زملائه من قبل المعلم، ويعينه كمعلم مساعد له في تدريس بعض الطلبة، أو يخوله بالتدريس في حال غيابه. أما الطالب المقصر في دروسه، أو المتغيب عن الدراسة دون عذر مقبول، فإنه يعاقب وفقاً لما يقتضيه حاله، والخطأ الذي وقع فيه، فيبدأ بالتأنيب، فإن لم يفد فبالضرب، فإن لم يرتدع فبالحبس في المدرسة والحرمان من الاستراحة، وآخرها ربطه على جذع شجرة فترة من الزمن.

المطلب التاسع: الثمار العلمية لمدرسة جبرين

- أصبحت مدرسة حصن جبرين مركزاً علمياً وثقافياً يفد إليه العلماء وطلبة العلم من داخل عمان وخارجها.
- ازدهار الحركة العلمية والثقافية في تلك الفترة، فمخرجات هذه المدرسة رجعوا إلى بلدانهم وأوطانهم، وأكملوا رسالة التعليم والتثقيف.
- تخرج فيها كثير من النوابغ في مجال العلوم الشرعية والأدب، ويقال إنهم بلغوا حوالي

خمسين عالماً أو يزيد على ذلك، وأصبحوا مرجعاً للعلم والفتيا، هذا إلى جانب الأدباء والشعراء الذين أنتجت قرائحهم أدباً عذباً رفيع المستوى(28). وكان الخريج يحصل على شهادة التخرج بعد إنهائه المرحلة العليا، وتعطى له من أساتذته، وتسمى إجازة، حيث يجيز الشيخ لتلميذه ليكون معلماً بناءً على كفاءته العلمية(29).

- أصبحت هذه المدرسة أنموذجاً ومرجعاً للتعليم الرسمي في العصور المتعاقبة في عمان.
- أسهمت مخرجات هذه المدرسة في الحركة العلمية، وتجلى ذلك في الاجتهاد، والتأليف في ميادين العلم المختلفة، ونشط عمل النساخ، الذين كان يُشترط فيهم حسن الخط، والقدرة على التعبير، فكانوا يقومون بالتدوين والكتابة، ومن هؤلاء النساخ: صالح بن مبارك الربخي البهلوي، الذي نسخ بيده للإمام بالعرب الجزء الرابع عشر من كتاب بيان الشرع(30)، فأثرى هذا الحراك العلمي المكتبة العمانية(31).

ويشير ابن رزيق إلى أن هذه المدرسة تعد من أشهر المدارس في عهد الدولة اليعربية، وكانت تضم العشرات من الدارسين، وخرَّجت نخبة من العلماء والأدباء، بلغ حوالي 50 عالماً وأديباً، ومن بين هؤلاء العلماء[32]:

- الشيخ خلف بن سنان الغافري، قاض ومفت، عيَّنه الإمام سلطان بن سيف الأول والياً وقاضياً، وله أجوبة كثيرة في الأثر، وله كذلك ديوان شعر كبير، موجود في مكتبة وزارة التراث والثقافة العمانية، وأكثر شعره في المديح والفقه، وبعضه في الفلك والطب.
- الشيخ محمد بن عبد الله بن جمعة بن عبيدان العقري النزوي، تصدى للفتوى كغيره من علماء عصره، كثير الفتوى في مسائل الفقه، وتولى القضاء في عهد الإمام سلطان بن سيف، وولده الإمام بالعرب، له أجوبة طبعتها وزارة التراث والثقافة في ثلاثة أجزاء، وطبعت له كذلك كتابه «جواهر الآثار»، توفي في شهر محرم عام 1104هـ الموافق لأكتوبر من عام 1692م.
- الشيخ بشير بن عامر الفزاري، فقيه وطبيب وشاعر، من علماء أواخر القرن السابع عشر، وكانت بينه وبين الشيخ علي بن عامر العقري - الذي جمع بين علم الفقه والطب - مراسلات وأبحاث في علم الطب.
- الشيخ محمد بن عبدالله بن مبارك المسروري الريامي، فقيه وعالم بالنحو، له أجوبة في كتابه «فواكه العلوم في طاعة الحي القيوم» وهو ممن جمع بين علم الفقه والفلك.
- الشيخ راشد بن خميس بن جمعة الحبسي، أديب وشاعر، أصابه العمى وهو ابن ستة أشهر، انتقل إلى مدرسة الإمام بالعرب بن سلطان، فتخرج منها أديباً أريباً، له ديوان شعر مطبوع باسم «ديوان الحبسي».

الخاتمة

من خلال هذا التطواف التاريخي لمدرسة حصن جبرين التي أسسها وأشرف عليها الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي، يتبين أن عمان دولة عريقة ذات حضارة وإرث علمي وثقافي وأدبي وحضاري، ويظهر أن هناك ثلاثة عوامل رئيسة ساعدت على ازدهار العلم، وتنشيط الحركة العلمية في البلاد عبر العصور المختلفة، وخصوصاً في فترة الدولة اليعربية التي امتدت في الفترة من (1034هـ/ 1624هـ - 1162هـ/1749م، وهذه العوامل هي:

- اهتمام أئمة اليعاربة بالعلم، وهذا أمر ليس بمستغرب، فهم شخصيات مشهود لهم بالعلم، لذلك بذلوا جهودا كبيرة في نشر العلم، من خلال إنشاء المدارس في ربوع البلاد، وتوفير متطلبات العملية التعليمية، وتشجيع التدوين، ونسخ المخطوطات، كل ذلك ساعد على إثراء المكتبة العمانية، وشجع المتعلمين على التعلم الذاتي.
- الرخاء الاقتصادي، ففي فترة الإمام بالعرب كانت الدولة تملك أموالاً كثيرة من عائدات التجارة، ومن الناتج الزراعي، كل ذلك ساعد الإمام على إنشاء المدارس، وتمويلها، وخصوصاً مدرسة حصن جبرين، فأقبل إليها طلبة العلم من كل صوب.
- الأمن والاستقرار، وهما ركيزتان أساسيتان للنمو والتقدم والتحضر، والسعي في طلب العلم والمعرفة.
- ساعدت تلك الأسس مدرسة جبرين على نهوضها وتميزها، واستطاعت أن تسطر إنجازاتها لتكون منارة عبر الزمن، ومدرسة حضارية يستفاد منها في بناء مؤسسات التعليم وتشغيلها وإدارتها، وأنموذجاً في تنظيمها وجودة مخرجاتها، التي أسهمت إسهاماً كبيراً في الحركة العلمية والثقافية والأدبية في عمان.

المراجع:

1. البراشدي، موسى بن سالم، الحياة العلمية في عمان في عهد اليعاربة، (مسقط: النادي الثقافي، 2012، ط1).
2. البوسعيدي، سالم، الرائع في التاريخ العماني، (مسقط: مكتبة الأنفال).
3. الراجحي، سعيد بن عبدالله، المؤسسات التربوية في زمن اليعاربة بسلطنة عمان، مدرسة حصن جبرين أنموذجا، (رسالة ماجستير، جامعة اليرموك – الأردن، 2015).
4. ابن رزيق، حميد بن حمد، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1405هـ/ 1984م.
5. ابن رزيق، حميد بن رزيق النخلي، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2016م، ط6).
6. أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (صيدا وبيروت: المكتبة العصرية).
7. السالمي، نور الدين عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، (مسقط: مكتبة الجيل الواعد، 2016م، ط1)
8. السيابي، سالم بن حمود، عمان عبر التاريخ، (سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، 1435هـ/2014م، ط5).
9. العوتبي، سلمة بن مسلم، الأنساب، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2006م، ط4).
10. مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
11. المنجي، سيف بن سليمان بن سيف الإمام بالعرب بن سلطان بن سيف اليعربي (الرجل الذي حير العلماء والمؤرخين والباحثين، (مسقط: مكتبة بذور التميز، ط1، 2018م).
12. الموسوعة العمانية، مسقط: وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2013، ط1).

المصادر والمراجع

(1) العوتبي، سلمة بن مسلم، الأنساب، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان، 2006، ط4) ج1، ص258. لا وجود لهذا الأثر في كتب الحديث، وإنما تتناقله كتب التاريخ.

(2) هما ابنا الجلندى بن المستكبر بن مسعود بن الحرار، استلما الحكم في عمان عام 630م، وفي عهدهما أسلم أهل عمان.

(3) مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي) باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ج3، ص1255، حديث رقم، (1631).

(4) الراجحي، سعيد بن عبدالله، المؤسسات التربوية في زمن اليعاربة بسلطنة عمان، مدرسة حصن جبرين أنموذجا، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك - الأردن، 2015، ص9.

(5) ابن رزيق، حميد بن رزيق النخلي، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين (مسقط: وزارة التراث والثقافة - سلطنة عمان، 2016م، ط6)، ج2، ص 148.

(6) المنجي، سيف بن سليمان بن سيف الإمام بالعرب بن سلطان بن سيف اليعربي (الرجل الذي حير العلماء والمؤرخين والباحثين، (مسقط: مكتبة بذور التميز 2018م، ط1)، ص ص: 62-63.

(7) الموسوعة العمانية، (وزارة التراث والثقافة: 2013م)، ج2، ص552.

(8) ابن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، ج2، ص 158.

(9) البراشدي، موسى بن سالم، الحياة العلمية في عمان في عهد اليعاربة، (مسقط: النادي الثقافي، 2012م، ط1)، ص 46. والبوسعيدي، سالم، الرائع في التاريخ العماني، (مسقط: مكتبة الأنفال)، ج2، ص40.

(10) ابن رزيق، حميد بن حمد، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان، (سلطنة عمان: وزارة التراث القومي والثقافة، 1405هـ/ 1984م، ص259.

(11) السالمي، نور الدين عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، (مسقط: مكتبة الجيل الواعد، 2016م، ط1)، ص 345.

(12) المنجي، الإمام بالعرب بن سلطان بن سيف اليعربي (الرجل الذي حير العلماء والمؤرخين والباحثين، ص74.

(13) جبرين، أو يجبرين، بلدة من أعمال بهلاء، تقع في محافظة الداخلية، وهي بلدة عامرة بالمزروعات، التي تسقى بالأفلاج والآبار، أول من بناها الإمام بالعرب بن سلطان اليعربي.

(14) الموسوعة العمانية، (وزارة التراث والثقافة: 2013، ط1)، المجلد 3، ص 891.

(15) الإمام نور الدين السالمي، هو العلامة المجدد أبو محمد؛ عبدالله بن حميد بن سلوم بن عبيد بن خلفان بن خميس السالمي، وهو من بني ضبة وينتمي إلى قبيلة السوالم، وهو من علماء القرن 14 الميلادي، عالم ضرير ومجدد، اشتهر بالعلم والذكاء، وله مؤلفات عدة في علوم الشريعة واللغة والتاريخ.

(16) السالمي، تحفة الأعيان، ص341.

(17) السالمي، تحفة الأعيان، ص ص329، 333، 335.

(18) المرجع السابق، ص 335.

(19) البراشدي، الحياة العلمية في عمان في عهد اليعاربة، ص ص46-47

(20) لسيابي، سالم بن حمود، عمان عبر التاريخ، (سلطنة عمان: وزارة التراث والثقافة، 1435هـ/2014م، ط5) ج3، ص200.

(21) البراشدي، الحياة العلمية في عمان في عهد اليعاربة، ص122.

(22) مؤلفه أبو الحسن علي بن محمد بن علي البسيوي عاش في ق 10م، جمع في هذا لكتاب خلاصة أبواب الفقه. الموسوعة العمانية، المجلد 7، ص 2533.

(23) مؤلفه عبدالله بن محمد بن بركة السليمي، المشهور بابن بركة، عاش في (ق9-10م)، فقيه ومتكلم، يعد أول

مـن كتـب في أصـول الفقـه في المدرسـة الإباضيـة. الموسـوعة العمانيـة، المجلـد 7، ص 2403.

(24) مؤلـف خميـس بـن سـعيد بـن عـلي الشـقصي، عـاش في (ق 17م)، سـياسي وفقيـه وقـاض وشـاعر، وهـذا الكتـاب يضـم الفقـه والعقيـدة والأدب. الموسـوعة العمانيـة، المجلـد 4، ص 1316.

(25) الراجحـي، سـعيد بـن عبـد اللـه، المؤسسـات التربويـة في زمـن اليعاربـة بسـلطنة عـمان، مدرسـة حصـن جبريـن أنموذجـا، (رسـالة ماجسـتير، جامعـة اليرمـوك – الأردن، 2015)، ص 104.

(26) أبـو داود، سـليمان بـن الأشـعث، سـنن أبي داود، تحقيـق: محمـد محيـي الديـن عبـد الحميـد، (صيـدا وبـيروت: المكتبـة العصريـة)، بـاب : الحـث عـلى طلـب العلـم، ج3، ص317، رقـم الحديـث (3641).

(27) الراجحي، المؤسسات التربوية في زمن اليعاربة بسلطنة عمان، مدرسة حصن جبرين أنموذجا، ص ص87-88.

(28) السيابي، عمان عبر التاريخ، ج2، ص202. والبراشدي، الحياة العلمية في عمان في عهد اليعاربة، ص ص124-125

(29) الراجحي، المؤسسات التربوية في زمن اليعاربة بسلطنة عمان، مدرسة حصن جبرين أنموذجا، ص 104.

(30) بيـان الـشرع موسـوعة فقهيـة يتألـف مـن 72 جـزءا، ألفـه العلامـة الشـيخ محمـد بـن إبراهيـم الكنـدي السـمدي النـزوي، وهـو مـن علـماء القـرن الخامـس الهجـري.

(31) الراجحي، المؤسسات التربوية في زمن اليعاربة بسلطنة عمان، مدرسة حصن جبرين أنموذجا، ص ص 105-106.

(32) ابـن رزيـق، الفتـح المبـين، ص ص159-160، والراجحـي، المؤسسـات التربويـة في زمـن اليعاربـة بسـلطنة عـمان، ص ص104-105.